ذو القرنين ب
القرآنى وال

توطئة :

ان دراسة الحوادث القرآنية دراسة تاريخية ، تتطلب شروطا تختلف عن تلك التي تتطلبها سائر الحوادث الزمانية ، وهذا مرجعه الى أن القرآن صادق فيما أورده من لفتات علمية أو تاريخية ·

فدراستنا هنا عن ذي القرنين بين الخبر القرآني والواقع التاريخي ، وان كانت تتصف بالدراسة العلمية ويغلب عليها الطابع التاريخي العلمي لا الطابع التفسيري الديني · الا ان هذا لا يمنع من الرجوع الى التفاسير لأنها هي وحدها التي بحثت هذا الموضوع ، وثمة أخرى ، أن أغلب المؤرخين الذين رجعنا لكتبهم قد كتبوا في التفسير كابز الأثير والطبري بل ان من الدوافع العملية لدراسة التاريخ عندهم توفر المادة التاريخية والقصص التاريخي في القرآن ، مما دفع بمفسري القرآن الى البحث عن معلومات تاريخية لتفسير ما جاء فيه . وقد أصبح الاهتمام بالمادة التاريخية على مر الزمن احدى فروع المعرفة التي تمت بالارتباط القرآني (١) ·

ين الخب
واقع التاريخى

بقلم:عبدالله بن ابراهيم العسكر

وحقيقة أن القرآن يحتوي على معلومات تاريخية أمر لا يحتاج الى برهان · ولكن معلومات القرآن التاريخية تختلف عما يدعي اليهود وجوده في التوراة · والرسول (ص) نفسه لديه شعور عميق بالتاريخ ، ولكن انصرافه عنه لا يدل البتة احتقاره لهذا الفرع من الدراسات أو لعدم ايجابيته ·

وأغلب الحقائق التاريخية الموجودة في القرآن جاءت نتيجة لسؤال وجه الى الرسول (ص) ، من ذلك موضوعنا هذا · فقد جاء في كتاب (لباب النقول في أسباب النزول) للسيوطي من أن قريشا بعثت الى أحبار اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد لعلمهم بالكتب السماوية فنصح اليهود قريشا أن تسأل محمد ثلاثة أشياء : منها سؤاله عن أصحاب الكهف والرجل والطواف (٢) ، ولكن هذا ليس بقاعدة عامة تعمم على كل الحوادث ، وان كان هنالك روايات كثيرة حول هذا الموضوع فليست هي السبب الرئيسي ، ولكن هذه هي حالة المفسرين فانهم يربطون كل آية بقصة ، ويعتقدون انها سبب نزول هذه الآية ولكن المحقق ـ كما يرى ولي الله الدهلوي ـ يرى أن الغاية الأساسية من نزول القرآن هي تهذيب النفوس البشرية ، والقضاء على العقائد الباطلة والاعمال الفاسدة من سرد موجز للحوادث (٣) ·

وقد يكون الرسول (ص) قد سمع بعض الاخبار والمعلومات التاريخية لا يبرر افتراض بأن الرسول (ص) قد قرأ المصادر التاريخية كالتوراة في ترجمتها العربية (٤) ، ولكننا نجزم انه لم يتصرف في الحوادث التاريخية بنفسه ولم يتلقها

من أخبار اليهود أو النصارى كما يزعم بعض المستشرقين ، حقيقة انه من الحمق التهويل في هذا الشأن ، ما دام الرسول (ص) لم يلق أحبار اليهود ولا رهبان النصارى ولم يثبت اتصاله بهم (٥) ·

اذن نخرج من هذا كله ان القصة التاريخية في القرآن جاءت لتؤكد حقيقة فيها عبرة وعظة ، بصرف النظر عن السرد التاريخي · والقرآن كتاب منزل لم يشهد ـ كما حدث للتوراة والانجيل ـ أي تحريف أو تبديل والعلم الحديث يثبت صحته من ذلك انه تكلم عن التغييرات والتحريفات التي اعترت الكتب المقدسة قبله ؛ فقد كشفت منذ ربع قرن نسخة من التوراة وقد تبين أن النصوص الواردة في هذه النسخة مختلفة عن التوراة التي يتداولها اليهود ، كما تبين انها تؤيد القرآن تأييدا تاما حتى أن Albrihgt الذي علق على هذه النسخة قال ما ترجمته الحرفية : « هل آن لنا أن نتخلى عن معتقداتنا بعد هذا الكشف » (٦) · لهذا السبب وغيره كتحذيرات الرسول بشأن أقوال أهل الكتاب وكتبهم لم ألتمس الحق في أقوالهم أو آرائهم التي تملأ اغلب الكتب العربية الاسلامية ·

أما عن موقف القرآن من التاريخ عامة ، فان القرآن تميز برواية الاحداث البعيدة ، والتي يعتبر التاريخ معها حديث عهد · والتاريخ ـ كذلك ـ وان وعى بعض هذه الاحداث ، فهو من أعمال البشر القاصرة يصيبه ما يصيب جميع أعمال البشر من القصور والخطأ والتحريف ، ونحن نشهد في زماننا هذا الذي تيسرت فيه أسباب الاتصال ووسائل الفحص ان الخبر الواحد يروى على أوجه شتى ، وينظر اليه من زوايا مختلفة ويفسر تفسيرات مختلفة ·

شخصية ذي القرنين

ان كتب التفاسير والتراجم والتاريخ تعطي أسماء كثيرة متباينة ومتناقضة في نفس الوقت عن اسم ذي القرنين ولقبه · وهنا سوف أقوم بسرد ما ورد في هذه الكتب ثم نحلل أهم هذه الآراء ·

فقد روي عن علي رضي الله عنه ان اسمه عبدالله بن الضحاك (٧) وقيل في رواية عن الزبير بن بكار عن ابن عباس ان اسمه : عبدالله بن الضحاك بن معد ، وقيل مصعب بن عبدالله بن قنان بن منصور بن عبدالله بن الأزد بن عوت (أو غوت) بن نبت بن ملك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن قحطان (٨) ، وفي رواية أخرى تنسب الى محمد بن علي بن الحسين ان اسمه عياش (٩) ، وذكر احتمال آخر وهو

الصعب بن الهمال الحميري (١٠) ، وهذا ما ذهب اليه ابن ختيمة اذ قال انه الصعب بن جابر القلمس (١١) ، ولقد ورد اسم الصعب على أنه اسم لذي القرنين في خطبة لقس بن ساعدة الأيادي (١٢) : « يا معشر أياد أين الصعب ذو القرنين ، ملك الخافقين وأذل الثقلين ، وعمر ألفين ، ثم كان ذلك كلحظة عين » ٠

وأنشد ابن هشام للأعشى :

والصعب ذو القرنين أصبح ثاويا
بالجنو في حدث أشم مقيما

وقال الشاعر أيضا :

فقد أذل الصعب صعب زمانه
وأناط قوة عزة بالفرق (١٣)

وهنالك ما رواه ابن اسحق حيث ينسبه الى احد الأعاجم ممن توارثوا من علم ذي القرنين ، ان ذا القرنين كان رجلا من أهل مصر اسمه مزربان بن مردية اليوناني من ولد يونان بن يافت بن نوح (١٤) ٠

وقيل ان اسمه هرمس (أو هرديس) (١٥) وذهب آخرون الى أنه أفريدون الذي قتل بيوراسب بن ارونداسب الملك الطاغي على عهد ابراهيم عليه السلام (١٥)، كذلك قيل أنه ابو بكر بن سمى بن عمير بن افريقس (١٦) وروي أنه اطركس الذي خرج على ساميرس أحد ملوك بابل وحاربه حتى ظفر به وقتله وسلخ رأسه مع شعره وذوأبتيه ودبغ تلك الفروة وتكلل بها فلقب بذي القرنين (١٧) ٠

هذه اثنا عشر قولا ونيف بصدد اسم ذي القرنين ، وكلها لو تأملناها لوجدنا أنها الى الاسرائيليات أقرب وألصق ، وكلها تعتمد على القصص والخيالات ٠ وقد صدرت من أصحابها كآراء شخصية ، وترجيح واستخراج المعاني بتغيير الحروف عن أماكنها الاصلية ، وبمعنى آخر تدوير المعنى على أساس أصل الكلمة واشتقاقاتها الصرفية ، وهذا كما ترى لا يمت للطريقة العلمية بصلة ، وهو الى التخرصات أقرب وخاصة أولئك الذين أعطوا لذي القرنين أسماء عربية اسلامية ، خاصة صيغة (عبدالله) أو أولئك الذين أوردوا شعرا للاستشهاد به ، علما أن الشعر العربي بهذا المستوى لم يكن معروفا عند تبابعة اليمن وأذوائها (١٨) ٠

أما المجموعة الثانية فترى انه الاسكندر المقدوني الكبير وتضم هذه المجموعة الامام عبد الملك بن هشام راوي السيرة (١٩) والفخري الرازي (٢٠) ، وابن

الأثير (٢١) ، والمسعودي (٢٢) ، والمراغي (٢٣) ، والقاسمي (٢٤) ، وجرجي زيدان (٢٥) ، وفرانز روزنتال (٢٦) ، والسخاوي (٢٧) ·

هذه المجموعة تضم تسعة من الكتاب في ميداني التفسير والتاريخ ترى انه الاسكندر المقدوني، ونظرا لأن الموضوع هذا يكاد يكون مسلما به في أوساط المتعلمين والمحدثين العرب · فسوف نعقد له فصلا خاصا نبين فيه بطلان هذا الرأي ان شاء الله ·

والمجموعة الثالثة والأخيرة ، وهي المجموعة التي تصف نفسها بالعلمية والدقة · فقد توصل العالم الهندي شبلي النعماني ان ذا القرنين هو دارا الكبير ملك فارس في القرن الخامس قبل الميلاد ، ورجح الهندي العالم ابو الكلام أزاد أنه كورش الملك الاخميني في القرن السادس قبل الميلاد (٢٨) ، وهو نفس ما توصل اليه البروفسور B. Grundi في مقالته العلمية ·

ولا أحسبني في حاجة الى دحض ما توصل اليه العالم الهندي شبلي النعماني من أن ذا القرنين هو دارا · لأن هذا الملك يدين بالديانة الزرادشتية التي ترى ان للكون الهين ، اله للخير (أهورامزدا) وآخر لك (اهريمان) ، كذلك تاريخ وسيرة دارا المعروفة عنه تخالف ما ورد في القرآن عن ذي القرنين ·

أما الاستاذ أبو الكلام أزاد ، فيقول في معرض كلامه عن ذي القرنين في كتابه الموسوم بالترجمان ما نصه : (٢٩) « ظهر سائرس Syrns (كورش) في سنة ٥٥٩ ق·م ، وقد جمع بين مملكتين فارسيتين عظيمتين ، كانتا قد انفصلتا منذ زمان ، وهما (ميديا) في الجزء الشمالي الذي يعبر عنه المؤرخون العرب بـ (ماهان) ، وفارس الجزء الجنوبي ، فكون منها امبراطورية فارسية عظيمة ، ثم امتدت فتوحه ومغامراته التي اتسمت بالعدل والكرم ، والانتصار للضعيف المظلوم ، فلم ينقض اثنا عشر عاما حتى خضعت له البلاد والدول ما بين البحر الاسود الى بكتيريا ، وقد ثبت تاريخيا انه غزا الغرب مرة ، فأوغل فيه الى غرب آسيا ، وفتح دولة ليديا ، التي كانت عاصمتها ساروس » · ويشير أبو الكلام أزاد الى انه وجد في سنة ١٨٣٨ م تمثال من رخام في أنقاض اصطخر Passargada ظهر في رأسه قرنان مثل قرني اكليش يمثلان مملكتي ميديا وفارس اللتين جمع بينهما كورش (٣٠) ·

هذا ما توصل له العالم ابو الكلام أزاد الذي حاول أن يبدو بحثه علميا ، لكنه بعيد جدا عن العلمية ، لأنه واضح محاولة أبو الكلام أزاد التوفيق بين ما ورد في القرآن عن ذي القرنين وبين قصة حياة الملك الاخنيني كورش ، ويعجبني هنا ما قاله الاستاذ عزة دروزه في رده على شبلي النعماني وأبو الكلام أزاد حيث قال ما نصه : (٣١) « وكلاهما لا يصل في رأيي الى مبلغ الاقناع ، وانه يدور على الأكثر في نطاق التأويل والتخريج والتخمين والتوفيق » ·

أما بشأن ما عثر عليه العلماء من تمثال يحمل قرنين ، فهذا ليس بغريب أو جديد · اذ ان اسم (ذو القرنين) يحمله أكثر من شخص ويجوز أن كورش كان من ضمن الذين تلقبوا بذي القرنين ، ومن ثم فان قرني كورش ــ اذا صح هذا ــ ترمز الى وحدة اقليمين ، فهل سبب تسمية الوارد ذكره في القرآن الكريم بذي القرنين ترجع الى هذا السبب ؟ ونحن لا نستبعد ان أبو الكلام أزاد تأثر بقصص الاسرائيليين الذين يزعمون ان ذا القرنين هو كورش وعدوه المنقذ والمخلص لهم ، وهو نفس ما فعلوه للاسكندر المقدوني اذ اعتبروه ولقبوه بذي القرنين ، ناشدين من وراء ذلك تعاطف هذين الملكين معهم ابان السبي البابلي · واعتقادهم هذا مسجل في سفر دانيال من أسفار العهد القديم على شكل رؤيا · وكان دانيال هذا معاصرا لبختنصر وتعرض للسبي مع اليهود الى بابل ، تقول هذه الرؤيا أن كبشا ذا قرنين ينطح بهما غربا وشمالا وجنوبا فلم يقف حيوان أمامه ، واذا بتيس من المعز جاء من المغرب له قرن واحد بين عينيه تقدم الى الكبش وضربه وكسر قرنيه وان جبريل فسر له ــ أي لدانيال ــ رؤياه بأمر الله ــ في الرؤيا أيضا ــ بأن الكبش هو ملك فارس وميديا ، وان التيس هو ملك اليونان (٣٢) ·

أما آخر المجموعات ، فهو لبعض الكتاب العرب المحدثين وعلى رأسهم الاستاذ معروف الدواليبي ويرون أن ذا القرنين هو الملك المصعب بن الحارث من ملوك حمير ، الذي يروى عنه توغل في الفتح في افريقية حتى بلغ أقصاها ، وعبر منها الى جزيرة الأندلس وبين فيها المنارات في بحر الظلمات (٣٣) ·

وهذا الرأي ليس ببعيد أو غريب اذا عرفنا أن عرب الجنوب يتسمون بهذا النوع من الاسم ، فنجد ذا نواس ، وذا المنار ، وذا الأذعار ، وذا الشناتر ، وذا جدن، وذ ايزن ، وهو ما استأنس اليه أبو الريحان البيروني (٣٤) ·

واكتفي بهذا القدر ، وفي العدد القادم ان شاء الله أكمل بقية الدراسة · كما أطالع القارىء بسرد لأهم المصادر والمراجع التي رجعت اليها في هذه الدراسة في آخر حلقة · والله من وراء القصد ·

عبدالله بن ابراهيم العسكر

الهوامش والمصادر

(١) روزنتال .. علم التاريخ عن المسلمين ، ترجمة صالح العلي ، ص ٤١ .

(٢) السيوطي : الباب المنقول في أسباب النزول ، ص ١٤٤ .

(٣) السيوطي : ص ١٤٤ .

(٤) الندوي : الصراع بين المادة والايمان ، ص ١٤٢ .

(٥) صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن ، ص ٤٥ .

(٦) عثر على هذه النسخة من التوراة الاصلية في قادوس (اناء) مـن الفخار في احدى الكهوف القريبة من البحر الميت . وقد صدرت دراسات عن هذه النسخة احداها تحت عنوان ـ لفائف البحر الميت The Dead Sea Scralls أخرجته شركة منتور للنشر Manttor Books والاخرى نشرت النصوص بالعبرية وترجمتها بالانجليزية في ثلاثـة أجزاء وهذان الكتابان لم يترجما الى العربية بعد ، مع فائدتهما الكبيرة وأثرهما في قضايانا الاسلامية بصورة عامة .

(٧) زاد المسير في علم التفسير ، لابن الجذري ، ص ١٨٣ .

(٨) التفسير لابن كثير ، ص ١٠٦ .

(٩) ابن الجوزي ، ص ١٨٣ .

(١٠) الآثار الباقية عن القرون الخالية ، لأبي الريحان البيروني ، ص ٤٠ .

(١١) ابن الجوزي : ١٨٣ .

(١٢) البداية والنهاية ، لابن كثير ، ص ١٠٥ .

(١٣) ابن كثير : التفسير ، ص ١٠٥ .

(١٤) القرطبي ، ص ٤٥ .

(١٥) تفسير القرطبي : ١٤ .

(١٥) تفسير القرطبي ، ص ٤٧ .

(١٦) ابو حيان البيروني : ١٥٨ .

(١٧) نفسه : ٢٤ .

(١٨) دليل المستفيد عن كل مستحدث جديد ، عبد العزيز آل خلف ، ص ١٠٥ .

(١٩) ـ (٢٧) أنظر هذه الاقوال في الكتب الثانية على الترتيب :
ابن هشام : ١٠٩ ، الفخري الرازي : ١٦٣ ، ابن الأثير : ٢٨٢ ، المسعودي : ٤١٤ ، المراغي : ١٣ ، القاسمي : ٤٩٩ ، جرجي زيدان : ٢٤ ، فرانز روزنشال : ١٦٠ ، السخاوي : ١٤٤ .

(٢٨) + (٢٩) محمد عزة ، دروزة : ٤٧ .

(٣٠) للتوسع في هذا الموضوع ، أنظر المجلد الثامن من
Universal History of the World

(٣١) محمد عزة ، دروزة : ٤٧ .

(٣٢) محمد عزة دروزة : ٤٧ .

(٣٣) جاء هذا الرأي في كتاب التيجان في معرفة الزمان المنسوب الى وهب ابن المنبه اليماني ، أنظر كتاب دراسات تاريخية عن أصل العرب وحضارتهم الانسانية لمعروف الدواليبي، ص ٢٤

(٣٤) أبو الريحان البيروني : ٤١ .